توجيه الفرد والامة

— ٣ —

يقلم : ابو سناز هادى العصامى

الوحدة الجامعة

ان الوحدة التي نقصدها في هذا الفصل ونبحث عنها ، لم تكن إلا الوحدة الجنسية — وبعبارة اجلي — الوحدة العراقية، اما الوحدة المزيفة التي لا كنها افواه قوم، وطبل لها آخرون، فهي من جراثيم الفتك التي دستها سياسة الاستعمار ، لتقضي على الشرق بكامله ، منتقمة من العرب والاسلام ، والحرب الصليبية ما اثارها الا روح الانتقام من العرب ، غير ان تمسك العرب بدينهم ، رد كيد الغرب الى نحره ، وظلت تلك الروح تعتلج في صدور الصليبيين ، حتى اذا بعدت الشقة بين العرب ودينهم ، ونبذوا تعاليمه ، تلاشت قوى الاسلام ، واذ ذاك اخذ وايدسون سموم السياسة من طريق العنصريات مرة ، والطائفيات اخرى ، ففتت في عضد العرب والاسلام .

ثم وجدوا لهم خير ساعد على ذلك ، هو تطبيل قوم كانت علاقتهم بالروح العربي علاقة الفيل من ولد الانسان ، وزمر بذلك الاسم آخرون ، ليعبثوا في ظله الوارف ، فتطاولوا على العراق من حدب بعيد ، كان جل ما يحمل جلهم من الثقافة العالية ، هو التشدق بالقومية العربية في كل درس في اي علم كان ، فكأن كلمة (القومية العربية) كلي طبيعي (كالحيوان) فكما ان الحيوان كلي له مصاديق كثيرة ، اي يشمل كل الحيوانات على اختلاف انواعها ، فكذلك (القومية العربية) فهي علم الجغرافية ، والكيمياء ، والفيزياء ، والعلوم عامتها ، فمن كلمة القومية العربية يستخرج الاكسجين ، وحامض الكاربون ، ومنها يستخلص اهم المعادن والسوائل ، كما وان منها تؤخذ الموازين ، والمقاييس ، وتعرف بواسطتها خطوط الطول والعرض ، والاعداد الى غير ذلك من انواع العلوم .

لا ينكر ان القومية العربية بما هي من اهم العوامل لتحقيق احلام الامة العربية ، وامانيها ، والمعول الهدام لما تشيده سياسة الغرب لاستغلال حيوية البلاد واقتصادياتها ، واليد المحطمة لسلاسل الاستعمار ، والامة التي لم يجر فيها دم قوميتها غير صالحة للحياة — وبتقريب آخر — إن الروح عندما يحل في الانسان ، يبعث فيه الحياة بكل معانيها ، غير ان شعوره بضروب الحياة المعنوية التي تكسبه مكانة عالية في طبقات الهيئة الاجتماعية وشوقه الى سد نقصه بها ، لا يحصل الا ضمن نظام معين ، واذا جرد الروح من البدن صار كالحجر الى جنب ذى الحياة ، وليست القومية الا كالروح لجسم الامة ، فهي تبعث الحياة في جسمها ، واذا انتزعت من هذا الجسم صارت كالحجر الصغير الى جنب الامم الحية ، تتلاقفها كما تلعب الغلمان بالاكر .

واذا اردنا ان نقارن بين القومية الاسلامية التي استعمرت العالم عدة قرون ، واذهلت الامم بقوة مفعولها ، وبين القومية العربية اليوم التي جزأت المملكة الاسلامية ، وضيقت دائرة البلاد العربية ، نرى الفوارق ظاهرة .

فان القومية الاسلامية هي نفس القومية العربية ، لان الاسلام من العرب مبداه واليهم منتهاه ، غير ان الاولى اوسع دائرة من الثانية والذي يدلك على ذلك ان قادة الرأي العربي ، واقطاب سياسة المملكة الاسلامية وملوكها ، لم يكونوا الا من رجالات الامة العربية ، فهم استعمروا العالم باسم الاسلام وبكتابهم المجيد ، والاسلام دين العرب ولو ارادوا أن يعتصموا باسم القومية العربية ، لتقلص نفوذهم ، واصبحوا آكلة سائغة بافواه الامم الاجنبية ، فهم وان اعتصموا بالقومية الاسلامية ، ولكنها هي نفس القومية العربية ، وهذا هو الذي كتب لهم خلود الذكر .

أدرك الغرب ان الامة العربية لا زالت متمسكة بتلك القومية ، لا يستطيع أن يستعمرها ويذلها ، كما استعمرته زمناً ، فعاث مفسداً في الجزيرة العربية بسموم سياسته ، والقح فيها نار الفرقة بما وضعه على ألسنة سماسرته ، ومن ذلك القومية العربية ، فصيرها فرقا ، وجزأها اثماً ، وقد ضربت سماسرته بأبواقها ، وتبعهم على ذلك الرعاع ولم يدروا ماذا

يريد الغرب من وراء ذلك ؟ فانه اراد أن يبلغ بعيد آماله وأمانيه من الشرق العربي ، ولن يبلغه إلا بشتات الاسلام .

كانت صنائعه بدأ هدامة لدعائم الاسلام ، ولصروح القومية العربية ، وان تشدقوا بها ، ولو كانوا عرباكما يزعمون لما خانوا امتهم وبلادهم ، ولما سفكوا دم العروبة الغالي غير مرة ابتغاء مرضاة معبوديهم ، وليس لهم من معبود سوى اطماعهم وشهواتهم ، وإلا لصدقوا فيما يدعون ، ولاحتفظوا بدم العروبة الزاكي ، ولكان صدق دعواهم باعثاً لهم على الذود عن حريم العروبة من ان يستباح ، ولكن ماشأنهم والقومية العربية إلا شأن (الكتاب المجيد) في بيت صهيوني ، عاش في ظل الاسلام ، وتنعم بنعيمه ، وهو يبغيه الغوائل .

* * *

إن الشعب الذي يتكون من العناصر الاجنبية ، يتعذر ايجاد وحدة شاملة فيه ، ولاسيما اذا كان ولاة امره في غير المستوى الذي ظنه الشعب فيهم ؛ وكانت سياستهم شخصية بحتة ، يستغلون ثروة البلاد لمصالحهم ، اما مصالح الشعب فلا تعدو اقل اهتماماً ، كما كانت الحال هذه في (بولونيا) فان تجنس العناصر الاجنبية بجنسيتها سهل تمزيقها واجتياحها باسبوعين .

فالعراق اذا اراد ان يعيش كأمة حية ، تستطيع أن تصافح جاراتها بيد من الحديد ، وتقبل يد العدو بفم من نار ، يجب ان يكوّن له وحدة شاملة بين سكانه ، بان يكونوا عراقيين دماً ولغة ، دون ان يفتح باب التجنس لعناصر اخرى ، وان اتصل بعضها فيه بالدم واللغة ، ولكن الدم لم يكن عراقياً ، ثم انه يباينها في التقاليد والعادات ، فان فساد الاخلاق ما تسرب الى العراق إلا من هذا البعض الذي اندك بالامم الغربية ، فاخذ عاداتها وتقاليدها ، وليست هي إلا مجموعة رذائل ، جاء يحملها في حقيبته كهدية غالية الثمن الى هذا الشعب العربي ، فلوث الخلق العربي بما بذره من سموم التفرقة التي هي امضى سلاحا للاستعمار .

* * *

ان تأمين سعادة الشعب موقوفة على محبة الوطن قبل كل شيء ، بحيث لم يستطع المرؤ ان يعيش الا لاجله ، وغير مقدورة

له الحياة بعده ، واذا أفعم القلب بهذه العاطفة الجميلة ، تراه يندفع بحرارة الايمان بحب الوطن الى الاعمال الكبيرة الخالدة لخدمة امته .

ان الانسان لا يقدر ان يعتز بذاته ، مالم يعتز بوطنه ، فان الاعتزاز بالذات فرع الاعتزاز بالوطن ، مضافاً الى ذلك ان ايمان المرء لا يكمل مالم يحب وطنه ، وقد جاء في الحديث (حب الوطن من الايمان) وما ذلك الا إن الله كما أراد العزة لنفسه فقد أرادها لرسوله وللمؤمنين وذلك صريح قوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ولما كان الاعتزاز بالذات لا يحصل إلا بعد الاعتزاز بالوطن ، جعل حب الوطن جزء من الايمان ، ولما ادرك رجالات الاسلام قيمة تلك العاطفة وجمال تلك الفضيلة ، اعتبروا الجزيرة العربية كلها وطناً لهم ، واحلوها في الصميم من قلوبهم محبة واعظاماً ، فقاتلوا بدافع محبة الوطن عن حريتها ؛ حتى انقذوها من سلطة الاكاسرة وسيطرة القياصرة ، ولولا الوحدة الشاملة وحدة اللغة والدم الذي لم يلوث بجرائم الفتك ، وتقاليد الغرب ، لما احلوا تلك العاطفة السامية في السويدا من قلوبهم ، فجاهدوا ليحرروا نفوسهم من كل قيد سوى الاخلاق ، او يغادروا هذه الحياة احراراً كراماً كما عاشوا .

إن حب الوطن فضيلة قائمة بنفسها ، ولن تأخذ محلها الا في القلب الذي نبتت اروعته فيه ، وتغذى من تربته ، وارتوى بمائه ، وقد برهنت الظروف التي تمخض بها منذ تأسيس الحكم الوطني ، وحتى اليوم على اخلاص أناس وخيانة آخرين ، فكانت كحجر الصيرفي ، أو بودقة الصائغ ، تميز الذهب من النحاس والفضة من القصدير ، فالدم العربي بأبى الخيانة لشعبه ، لأنها خيانة لنفسه ، لأقل هفوة اذا اختلى في وحدته يخجل من نفسه ، فيحاسبها دقيقاً على تلك الهفوة التي يخشى أن يلبس ثوب العار من ورائها ، أما الذين اخلصوا لعاجل اللذات والشهوات بثوب الوطنية ، فان اخلاصهم هذا خير شاهد ناطق بافصح لساناً ، ينبيك أن علاقتهم بالشعب علاقة السواد من البياض ، اذ لو كان الدم الذي يجري في عروقهم دماً عربياً ، لكانت لهم ضمائر تؤنبهم لاقل هفوة ، وتخزهم